قضايا ثقافية

استنساخ الانسان، هل ينجح؟!

مرة جديدة يدهشنا العلم بأبحاثه واكتشافاته الفريدة الى حد مذهل. فقد اطلعتنا وسائل الاعلام باكتشاف الاستنساخ (Clone او Cloning) الذي توصل الى انجازه العالم الاسكوتلندي (Ian Wilmut) الذي يشرف على معهد الابحاث (Roslin Institute, Edinbourg) حيث النعجة المستنسخة دوللي ابصرت النور هناك بعد تجارب مطولة وصلت الى نحو الثلاثمئة محاولة!

تقنية الاستنساخ هذه - اي الخلق من انثى فقط دون الاستعانة بالحوين المنوي الذكري - جرت على ثلاث مراحل، واستعملت فيها ثلاث نعجات:

١ - استخلاص خلية من الغدة الثديية للنعجة الاولى.

٢ - استخلاص بويضة من نعجة اخرى ازيلت منها نواتها.

٣ - زرع الخلية في البويضة في رحم نعجة ثالثة لحملها.

هكذا تمت عملية الاستنساخ في المختبر من دون أب، وبعد خمسة شهور ظهرت دوللي الى الحياة وهي نسخة طبق الاصل عن أمها الاولى، تلك التي استخلصت الخلية منها.

بعد استنساخ دوللي بقليل، ظهرت في الصحف صورة اخرى لعالم اميركي يحمل توأمي قردة استنسخا بالطريقة ذاتها في اميركا.

هذان الخبران هما باكورة تجارب بدأت منذ سبعين عاماً بلا كلل ولا ملل ولا يأس كما تقول وسائل الاعلام، وتوالت العلماء المبتمون النتائج والابحاث لعدة اجيال حتى نجحوا فيها اخيراً.

بدأت التجارب في العشرينات على النبات... عندما سعى فريق من علماء البيولوجيا الى تحسين المحصول الزراعي وانتاج ثمار متماثلة اللون والطعم والحجم والوزن ايضا... لاغراض تجارية بحتة، تضمن الجودة والنوع والوزن، وتجذب مصانع العصير والمعلبات.. ونجحت التجارب في الخمسينات، وتطورت في الستينات، حيث ظهرت في الاسواق اصناف جديدة من البندورة لها الحجم واللون والطعم نفسه.. منها المستطيل البيضاوي، والمكوّر الصغير الذي هو في حجم ثمرة العنب.. ورأينا صناديق التفاح التي لا تختلف ثمرة فيه عن اخرى، ورأينا العنب المتماثل الحجم واللون، وبدون بذرة. ثم تطور الامر بانتاج شجيرات نخيل متماثلة تماما. ولكن لم يتصور احد ان يتعدى ذلك الى الحيوان حتى ظهرت النعجة دوللي الى الوجود.

بعد نجاح استنساخ دوللي، ينكب العلم حول امكانية استنساخ الانسان. في الواقع، هذه الفكرة راودت احد العلماء الاميركيين في الثلاثينات، اذ قال: جميع العناصر المعدنية التي يتكون منها جسم الانسان، بما في ذلك كميات الفيتامينات والبروتين.. هذه كلها نستطيع ان نبتاعها من الصيدلية بسعر لا يتعدى دولار واحد فقط! ولكن هل نستطيع ان نجعل منها انساناً؟!

وما زال الحلم يبحث عن تحقيق ذاته. وهذا ما اثار مخاوف رجال الدين ورؤساء الدول الكبرى، فدان قداسة البابا الاستنساخ، كذلك منع الرئيس كلينتون تمويل التجارب عليه، كما منعها الرئيس شيراك ايضا.

ويبقى السؤال: هل باستطاعة العلم استنساخ الانسان؟ هل باستطاعة المخلوق ان يكون خالقا؟ هل يمكن للانسان ان يتحدى الخالق او يتطاول على قانون الخلق؟ لا شك ان اسئلة كثيرة، اخلاقية واجتماعية وغيرها راودت المنطق العلمي. علما ان مستنسخ دوللي (الدكتور ويلمت) قام وفريقه بأبحاث وتجارب سبقت دوللي على الانسان، فلم يحالفه النجاح فيها. اذ قال: «ان خلايا الدماغ (البشري) والعضلات هي خلايا متخصصة (specialized) بالانسان ... بمعنى انها اكثر تعقيدا من مثيلتها لدى الحيوان بحيث لا يمكن اعادتها الى نقطة الصفر. وهذا ما جعله يستغني عن ابحاثه عن الانسان في الوقت الحاضر، وينكب على استنساخ الحيوان اولا.

وهذا ما يعيد الى الاذهان اعتراف داروين بان هناك حلقة مفقودة بين الانسان والحيوان... هذه الحلقة هي التي جعلته يتخلى عن نظريته بأن الانسان من اصل حيوان! فهل ابحاث ويلموت هي الحلقة المفقودة في استنتاجات داروين؟!

في عام ١٩٩٣ استنسخ علماء الاجنة في جامعة جورج واشنطن اجنة بشرية بعد ان اخذوا خلايا من ١٧ جنيناً بشرياً... وفصل العلماء هذه الخلايا في المختبر وطوروها حتى اصبح حجمها يسمح بزرعها في رحم امراة. ومن المؤكد ان هذه التجربة فشلت لاننا لم نسمع بنجاحها.

انما مجلة «NATURE»، التي نشرت ملف النعجة دوللي توقعت ان استنساخ البشر من انسجة بالغة ممكن في غضون عشر سنوات من الان. اهم من هذا كله ما تبين للعلم ان ما ينطبق على الحيوان لا ينطبق على الانسان.

في ضوء كل ذلك لا بد من التساؤل: هل الانسان كائن حيوي معقد التركيب المادي وحسب... او هو لا مادي التكوين اصلا استنادا الى طاقات لامادية عدة اهمها الذكاء وشعور الحب؟ هل يصح الغاء دور الرجل من الوجود؟ مع ان استنساخ الحيوان لم يتوصل بعد الى استيلاد ذكرا! وثمة اسئلة اخرى كثيرة يسبق اوان طرحها في الوقت الحاضر.

ولاننا نبغي من وراء بحثنا معالجة الموضوع بالمنطق العلمي المجرد، نذكر السادة العلماء بما ذكروه هم انفسهم بان الانسان بوجه عام يستعمل اقل من عشر طاقاته... اي انه ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة نفسه ومحتويات ذاته... وان ارتفعت هذه النسبة بين العلماء، فنراهم لا يزالون ينبحرون في خضم المادة دون ان يكتشفوا علاجا للامراض المستعصية على الاقل!

لقد درسوا الانسان ظاهريا وتعمقوا في وظائف كل من اعضائه الداخلية.. لكن لم يخطر ببالهم قط ان هناك كيانا باطنياً خافيا عن النظر، او لنسميه جهاز وعي يسيّر وظائف الدماغ ويسيّر وظائف القلب.. هو اثيري التكوين، ومن نتائجه الحقل الكهربائي المغنطيسي المحيط بالجسد الذي اقر به العلم مؤخراً... ودعاه بعض العلماء بالطاقة الكيميائية الحيوية (Biochemical energy). صحيح ان هذه الطاقة تتخلل كل خلية وتضمخها بالحياة والحركة. ولو كانت الخلية هي التي اوجدت الطاقة لكان هان البحث في الاستنساخ. لكن العكس هو الصحيح. لان القضية لا مادية اصلا.

وماذا ايضا عن العقل والنفس والروح؟ هل توصل العلم الى ايجاد الفارق بين العقل والدماغ؟ وبين العقل والوعي... وبين النفس والذات... وهل عرف ماهية الروح؟ او على الاقل تبحّر في مكونات الوعي الباطني... اليست هذه هي المكونات اللامادية التي على اساسها تكون الجسد المادي؟ لذا يتوجب دراسة الانسان ككل، بسائر ابعاده وآفاقه، بخفاياه قبل ظواهره، بالاصول قبل الفروع، الانسان هو الحقيقة وحقيقته هي ما يجب ان نعرفها قبل ان نساورنا فكرة استنساخه.

من عادة العلم انه يتوقف عند وصوله الى حائط مسدود، حيث يجد فراغا بعده... هذا الفراغ (الذبذبي) هو في الحقيقة بداية العالم اللامادي فذبذباته هي اصل كل مادي، اذ منها تكونت ذرات عالم الارض. اذكر مرة اني قرأت تجربة في الستينات لعالم سوفياتي بانه شاهد نورا في اعماق الخلية... فأوقف تجاربه متسائلا، هل في النهاية لا شيء غير النور، أم بحثه وصل الى اعتاب عالم نوراني جديد يلزمه معدات وتقنيات ومعارف من نوعه، هي غير متوفرة؟!

ولو فرضنا جدلا ان هذا العالم وفريقه كانوا يبحثون في امكانية الاستنساخ البشري، من منطلق ان الاتحاد السوفياتي (سابقا) كان متفوقا على الغرب في اختبارات الطاقات التي اكتشفها في الانسان - والمؤلفات العديدة التي ترجمت عن الروسية تشهد على ذلك - لكان نجح في الاستنساخ، ولسادت الشيوعية في العالم بفكرة لا وجود لله... او ان الله مات... بحسب قول نيتشه. فهل انكار وجود الله هو ما دمر الامبراطورية السليفة؟!

فليسكن هلع رجال الدين من امكانية الاستنساخ البشري، وليطمئن رؤساء الدول الكبرى، ولا حاجة لتحريمه او منعه. فمن يتطاول على العزة الالهية سيفشل حتما. وتاريخ الحضارات الاقدم على وجه الارض كان خير دليل على ذلك.

جاء في الكتب المقدسة ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله.. ونشرة مطرانية الروم الارثوذكس في بيروت عدد ٥١ تاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٩٦ تشرح معنى «الصورة»: «بالحرية والعقل والفكر والحس بالمسؤولية وكل ما يميز الانسان عن باقي المخلوقات».

وتشرح المثال: بأن يصير الانسان «مثل» الله، اي ان يكتسب المثال الالهي. وهذا ما يسمى التأله، اي اتحاد الانسان بالله. عندما تتحد مشيئة الانسان بمشيئة الله.

(يتبع)

المهندس طوني عبد النور
استاذ في الجامعة اللبنانية